طيب المقال في حديث الاستعجال

«ولكنكم تستعجلون»

شرح حديث خبّابِ بنِ الأرتّ رضي الله عنه:

الشيخ / عمر بن محمود أبو عمر

أبو قتادة الفلسطيني

وفقه الله

النور للإعلام الإسلامي

طيب المقال
في
حديث الاستعجال

الطبعة الأولى
١٤٣٣ – ٢٠١٢م

النَّاشِر :

النور للإعلام الإسلامي
Al Nur Islamic Information
Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur1@hotmail.com



فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وبالجملة فالسلامة من الخطر، أمرٌ يعِز على البشر، فسترَ الله على من ستر وغفرَ لمن غفر:

فَـانْظُرْ إِلَيْهَـا نَظَـرَ الْمُسْتَحْـسِنِ ... وَأَحْـسِنِ الظَّـنَّ بِهَـا وحَـسِّنِ
وَإِنْ تَجِـدْ عَيْبـاً فَـسُدَّ الخَلَـلا ... فَجَـلَّ مَـنْ لاَ فِيـهِ عَيـبٌ وَعَـلا
وَالحَمْـدُ للهِ عَلَـى مَـا أَوْلَـى ... فَـنِعْمَ مَـا أَوْلَـى وَنِعْـمَ المَـوْلَى
ثُـمَّ الـصَّلاةُ بَعْـدَ حَمْـدِ الـصَّمَدِ ... عَلَـى النَّبِـيِّ الْمُـصْطَفَى مُحمَّـدِ
وَءَالِــهِ الأَفَاضِــلِ الأَخْيَــارِ ... مَـا انْـسَلَخَ اللَّيْـلُ مِـنَ النَّهَـارِ[1]

---

[1] الأبيات من «ملحمة الإعراب» للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري. (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ / ١٠٥٤ ـ ١١٢٢ م).


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النَّبيِّ الأمين، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:ـ

فقال عليٌّ رضي الله عنه: «إنَّ للنكبات نهايات، ولا بدَّ لأحدٍ إذا نكب من أن ينتهي إليها، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدتها، فإنَّ في دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها»[1].

ثلاث عشرة سنَّة في المكان الواحد والفضاء الضيِّق والانجاز الظاهري المحدود مكثتِ الدعوة النَّبويَّة الشريفة في مكة، لم يُسلم خلالها إلاَّ الأعداد الإنسانية القليلة، ثم فيها هجرة الكثير من المؤمنين إلى أرضٍ لم يكنْ فيها إلاَّ حصول الأمان لهم، إذ بقواْ هناك في عُزْلَةٍ عنِ المجتمع؛ فلم يدخلوا فيه كما لم يدخلِ المجتمع فيهم كذلك، والذين آمنوا بهذه الرسالة وهذا الرسول ﷺ في مكة إنما كان إيمانهم في السنوات الأُولى، ولم يدخل خلال السنين التالية بعد الدفقة الأُولى إلاَّ أفرادٌ قِلَّة مِن هنا وهناك، ولو قرأتَ هذه السنوات من خلال المنجز الظاهر لَمَا عُدَّتْ في عُمْرِ الدعوات إلاَّ مرحلة دفع لا يُقابله القبض الُمكافئ له، وهي سِنُونَ أكثر مِن تلك التي تَلَتْهَا في المدينة وحصلَ فيها القبض والنَّصر وبلوغ الشهادة ودخول النَّاس في دين الله أفواجاً، فلماذا كان هذا؟ وما هي الحِكمة الإلهية في ذلك؟

[1] «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، فصل علي بن أبي طالب Z .

الجواب الحاضر على ألسنة المُجيبين لتفسير سنين مكة المكرمة هذه أنها سنوات التربية، وهي كلمةٌ صحيحةٌ لكنها كلمةٌ يتكئُ عليها كل فريقٍ فيُفسر كلمةَ التربية التفسير المُحبب والمُشتهى له، مع أنها لا تحمل إلاَّ وجهاً واحداً في الفِعْلِ، وهو الصبر على الابتلاء، وانتظار الفرج بحصول الوعد القادم، فهي سنوات محن مُتتالية، يزداد فيها البلاء يوماً بعد يومٍ، ولا يجابه هذا البلاء إلاَّ بالصبر، وكأنَّ حال المُبتلين هؤلاء في مكة هو حال السجين حيث يزداد ضغط جلاده عليه مع يقينه أنَّ لهذا البلاء أَمَدٌ سينتهي بفتح أبواب السجن عليه وسيخرج إلى عالَمِ الفِعْلِ المُضاد لسجانه، لكنه في سجنه لا يُواجه إلاَّ فِعْلَ سجانه بمزيدٍ من الصبر والثبات وتصديق الوعد بقُربِ اليُسر والفرج.

محنَّةُ الصبر على القِيَّم الإيمانية تحت ضغط الخصم وجَلده وجبروته فترةٌ لازمةٌ لإعداد المُهاجم لهذا الخصم بعد النفاذ من باب هذا السجن القاهر، وهي فترةٌ عاشها أغلب البنائين للحضارات والدول، وهي فترةٌ لازمةٌ لتثبيتِ حالة الخصومة بينك وبين أعدائك، وبها يحصل البيَّان الضروري في المُفارقة بين دينك ودينهم، فما سيقع بعد ذلك مِن فِعْلٍ منك تهاجم سيكون مفسراً بالتاريخ كما هو مفسر بالبيَّان.

ثلاثة عشر عاماً حددتْ قريش وِجهتها في التعامل مع هذا الدين وأهله، فقد كان لها متسعٌ منها لتقلب كل وجوه الإدارة والتعامل، وقد حصل لأهل هذا الدين يقين الحل الوحيد في التعامل مع قريش وأمثالها، وهم قد قرؤوا هذا كله في بيان السماء حين قصَّ عليهم قصص الأنبياء، وقد عاشوه واقعاً كذلك بكل أحداثه ووقائعه، فهي تربية ابتلاء لتحصيل اليقين على الوعد، كما هي تربية تعليم المُؤمن واقعَ الكُفر الذي سيُصارع بكلِّ قوته لمنع هذا الوعد وتحققه.

الإعداد النفسي للإنسان هو أطول في ظروفٍ كثيرةٍ مِن الفِعْلِ، ولعلَّ الإنسان هو الكائن الأكثر وقتاً ما بين مولده ومشيه، إذ أنَّ أغلبَ الكائنات ما أن تُلَدْ حتى

تمشي، لكن للإنسان وجهةٌ أُخرى، وهذه تفترق عن مسألة الأفكار والمُعتقدات، فإنَّ الايمان إنْ وَقَرَ في القلب يتجذر للحظته، والزمن ليس عنصراً للتثبيت كما يزعم التربويون في مِلَّتِنَا، فإنَّ السحرة مِن قوم فرعون اندفعوا في لحظةٍ مِن الكُفر إلى الايمان إلى الشهادة، وهي صورةٌ تتكررُ كثيراً في التاريخ، لكن تثبيت حالةٍ مَا بين طَرَفَيْنِ تحتاج إلى تعاملٍ ووقائعَ مُتكررة ليحصل المُراد، ولذلك فعنصر الزمن مُهِمٌّ وضروريٌّ لتثبيت حال سِلْمٍ بين مُتحاربين أو حالة حربٍ بين مُتحاربين، وهي إنْ حصلت بالوقائع والزمن والتِكرار فإنها ستكون إرثاً لمستقبلٍ طويلٍ قادمٍ لا تعفوه وتغيِّره الكلمات والأماني، ولو نظرَ المرءُ إلى كتاب الله تعالى وحديثه عن مكة وفَترتها لَمَا وجدها تُستثمر في القرآن إلاَّ في هذا الاتجاه وهو بيانُ واقِعِ الكُفْرِ القُرشي ضدَّ المؤمنين، فهم أولئك القوم الذين لا ينبغي مودتهم ولا مُوالاتهم ولا البرَّ بهم، كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

ويقول تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٣].

فهي سنون طويلة تختزلْ من أجل تعبئةٍ نفسيةٍ لزمنِ البناء الظاهر، وهي في حقيقتها تمثل قواعد هذا البناء التي تضرب في جُذر الأرض.

وقبل الاضطراد في بيان أهمية مثل هذه الفترة وطروفها فإنَّ مِن الواجب والتنبيه أنَّ هذه الفترة لا يلزم وُجودها في الابتداء فقد تحصلُ بعد الفِعْلِ أو أثناءه حيث تلزم باعتبارها حالة إعادة بناء وتأهيل، وهي في صورتها الظاهرة لا يُوجد فيها إلاَّ السكون والانتظار، وبهذا فهي حالةٌ خطيرةٌ على الكثيرين الذين يذوبون في اللحظات الراهنة، وينكسرون أمامها فيصرخون أنَّ الأمر قد انتهى، واغْلِقَ

ملف التاريخ، وآبتِ الرواحل إلى مُستقرها، وسبب انكسارهم هذا هو ضعف حضور التاريخ في أذهانهم، وهي سِمَّةُ الصغار الذين تُبهرهم الفقاعات، كما هم يَبْكُونَها إنْ تلاشتْ بعمرها الصغير القليل.

حين يضيقُ الفضاء مثل حالة السجين، ويكون الفِعْلُ فقط هو مُراقبة الزمن المار مرورَ النَّهر بين يدي الجالس على شاطئه، وهو مع ذلك يحمل ثِقل الغُربة وثقل عذاب الخُصوم، وكل لحظة تمرُّ عليه كما كل يومٍ يمر بين يديه هو على نفس نسق السابق حينها تنشأ الأسئلة القاسية: ماذا بعدُ؟ ولماذا هذا؟ وهل حقاً هناك وراء ذلك كلِّه وعد يتشكل فتنقلب الأحوال وتتغيَّر مُعادلات الوجود بين سجينٍ معذَّبٍ مأسورٍ وبين ظالمٍ قاهرٍ؟.

لكن أخطر الأسئلة التي تَهْجُمُ بها النفس على صاحبها هي الأسئلة التي تدور حول طُرُقِ الخلاص من هذا الفضاء القاهر وظَرفه، وأول ما توجه غازية إلى السبب الذي صنع هذه الظروف وهذا الفضاء.

لقد طلبتِ الجاهلية بعض الأمر من صاحب الدعوة وأتباعه، فإنها جادلته في أصولها أولاً، ثم جادلته في نِسْبِيَّتِهَا، وعن أشدِّ ما آلمها من هذا الدَّاعي وأتباعه هو رفع راية التَّبْكِيتِ[1] والسَبِّ والتَّحْقِيرِ لِقِيَمِهِمْ ورُمُوزِهِمْ وتاريخهم.

لقد جادلتِ الجاهلية رسول الله ﷺ في أُصول دعوته كما قال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ ﴾ [ص: ٤ ـ ٨].

فردوا توحيد الله، وردوا رسالة الرسول ﷺ.

[1] التَّبْكيت: الغَلَبَةُ بالحُجَّة.

كما جادلوه في اليوم الآخر فقال الله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق: ١ ـ٣].

وحاولوا منه ﷺ أن يقبل بِنسْبِيَّة اللقاء وسطَ الطريق بين قِيَّمهم وبين ما يدعو إليه، فقال تعالى مُثبتاً رسوله من مُتابعتهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

وكانتِ الضُغوط خلال هذه الفترة لتحقيق بعضِ النجاح في هذه الدعوة وصاحبها وأتباعه، وكان مجرد ثباتهم يدفعهم لمزيدٍ من الأذى البدني والنفسي، ولكن ويدفعهم لبعض التنازل، حتى يصل بهمُ الحال أن يكون كل جُهدهم تحقيق منع لحوق أتباعٍ جُدد فوق الموجود، أو منع اختراق هذه الفئة لحدود مكة إلى أقوامٍ آخرين، فهي فترة الضُعف الذي فيه اختبار الثبات، لأنَّ مَن لا يُؤْمَنُ على هذه القِيَّم وهو تحت ضغط القهر والضعف فإنه لا يُؤْمَنُ عليها في زمن النَّصر والغلبة والقوة، كما أنَّ مَن لم يُعاني مَرارة انتظار الفرج فإنه لن يعرف قيمته ولا أهميته إنْ جاء ثمَّ لحق به النَّصر والفتح.

فهذا اختبارٌ حقيقيٌّ، وخلاله يتم تشكل المولود في عالَم الغيب حيث يتم النمو للجنين، ومن تمام صحة هذا المولود أن يخرج في أوانه القَدري المُلائم له، وأخطر أمراض هذه الفترة هو الاستعجال الذي يدفع للتنازل أمام طُروحات الجاهلية، ولا ينشأ هذا الاستعجال إلاَّ لتلك الأسئلة التي يطرحها فراغ الصبر والانتظار واحتمال المكروه.

الاستعجال يعني أنَّ صاحبه كامِنٌ ساكِنٌ على حالةٍ واحدةٍ في ظاهر الأمر، لكن خلال هذا الانتظار يتم تشكل مَا لواجبِ عاملِ الزمن الذي لا محيدَ عنه،

وسُننية هذه الحالة تقتضي وُجوب الصبر على الظرف والثبات عليه، فهناك بذرة في باطن الأرض تتشكل في داخلها ليحصل لها الانطلاق للخارج ليتم المُراد الثاني منها، وإخراج هذه البذرة من محيطها ـ أي الفعل ـ كالتنازل أو المُقايضة رجاءَ الخروج من المحنة والفِتنة والابتداء هو تأخيرٌ لوقتها أو تدميرٌ لها وإذهاب ما أهلت له.

السكون هنا لا يعني الاختفاء، ولا ترك الفِعل اللازم للمرحلة، فرجل الكمائن سُكُونُهُ في مَكْمَنِهِ يعني الحُضور والمُراقبة والتنبه لِقُدُومِ الفَرِيسَةِ لاقْتِنَاصِهَا، وسكون الدَّاعي هو ثباته على فِعْلِهِ القائم به من الدعوة والصبر عليها وتبليغها في الليل والنَّهار، وفي السرِّ والعَلَنِ، وسكون المُجاهد هو ثباته في ميدانه ومعركته، لا يتغيَّر ولا يتبدل بما يقع له من ظروفٍ سَننية تقع للمُقاتل في ميدانه، وسكون السجين هو سكون النبي ﷺ في الشِعب ثلاث سنين، وسكون يوسف الكريم من قبله في السجن، وهو سكون فاعلٍ كفاعلية الزارع الذي ألقى البذر في الأرض وينتظر نماءها وحضورها.

لقد ظنَّ البعض بسبب الضعف والانكسار أمام اللحظة الراهنة أنَّ وقوعهم في هذه الفترة بداية الحِراك أو أثنائه يستدعي منهمُ المُراجعة، وهي مراجعة آلتْ إلى قبولِ عُرُوضِ الجاهلية، وهذا الانكسار نفسي وعلمي، أما إنه نفسي فلأنه رضوخ الخصم راكعاً ضعيفاً أمام خصمه، والمرء قد يُهزم في الميدان، بل إن الأنبياء يقع عليهم غلبة قوة أعدائهم كما وصف ذلك أبو سفيان في حديثه مع هرقل[1]، ولا دلالة لهذه الهزيمة في ميزان الحقِّ والباطل لأنَّ الأيام دُوَلٌ، وهذه سُنتها وهي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل لأحدٍ كائناً مَن كان، لكنَّ الانكسار النفسي هو الهزيمة الحق التي تُفرح الأعداء حقاً، والقيَّام بعده صعبٌ وشاقٌ وعسيرٌ، بل قد

[1] انظره في «صحيح البخاري»: ١/٧/ح٧، ٣/١٠٣٢/ح٢٧٤٣، ٣/١٠٧٥/ح٢٨٧٤، ٤/١٦٥٧/ح٤٤٣٥.
وفي «صحيح مسلم»: ١٢/٨٣/٤٥٦٢.

يحتاج إلى تبدل أجيال ليقع التغيِّير والخروج مِن التِّيهِ، وبالسقوط النفسي يسقط الرمز والمِثال، وتذهب اللحظة الراهنة من عُمْرِ التاريخ، كما قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدخان: ٢٩]. وهي مطلبُ الشيطان الرئيس، لأنَّ سقوطَ المرءِ من صفحة التاريخ يعني ذهاب حلقة الاتصال التي تحقق الهداية للأجيال، ومهما ادعى الناكصون أنَّ لانكسارهم هذا صفة العلم والبحث والتراجع المبني على الدراسة والتأمل ـ زعموا ـ فإنَّ حصوله تحت السوط والسجن وبيئة الصبر تحرمهم في عالَم الشهادة والحضور التاريخي من دخول عالَم الصدق والقبول والاحترام، فهي في ميزان التقيِّيم لكلِّ ناظرٍ أنها مجرد أثمان تُدفع لتخفيف الوطأة وتحقيق المنفعة بالخروج من هذه البيئة وهذا الظرف، فهي انكسارٌ نفسي ليس للعِلْمِ فيه دورٌ إلاَّ الطلاء الظاهر المُموه، أما إنه انكسارٌ علميٌّ فهو دليلٌ على أنَّ الرسوخ على الموقف السابق لم يكن بسبب قوة الدليل والبحث، وهذا الموقف السابق كان في زمنٍ أطول وسعة أرحب، فكيف يصدق القوم أن ما نشأ في زمن الصبر مع ضيقه النافر عن سمة العِلم والبحث قد حقق لهم جديداً هو الأصوب مِن عِلْمٍ كان سبيله الهدوء والأناة والسعة؟!

الراسخون في العلم يعني أنَّ لهم صفة الثبات، وهو لا يكون إلاَّ على قواعد اليقين والإحاطة، لكن البعض يخدع نفسه حين يجبر ضعف العِلْمِ وقِلَّة رسوخه بالبيئة التي يحياها، فيعيش فيها من خلال نظام القطيع، فما أنْ تتغيَّر البيئة حتى يظهر عَوار وضُعف العِلمِ وقِلَّة ثباته وعدم رسوخه، ولذلك فمِن فوائد العيش في الظرف الموصوف سابقاً أنه يحقق ابتلاء هذا العِلم تحت أقسى ظُروفه وهو أنْ لا يكون العِلم إلاَّ مجرد اعتقاد الصواب حتى لو لم يرَ المرء فاعلية هذا الاعتقاد الصائب، فالإسلام واليقين عليه لا ينبغي أن يكون إلاَّ بسبب أنه الحق في نفسه حتى لو خلا عنِ الفاعلية المنظورة، أما الذين يأتون إلى الحقِّ لوقائعه المادية في الآخر، أو منافعه الدنيوية للنفس فإنَّ هؤلاء لا تتحقق بهمُ الإمامة التي لها فضل

الاقتداء بالأوائل الذين ذهبتْ بهمُ الغُربة الأُولى، حتى النَّصر على الأعداء فقد جعله الله من نصيب المؤمن في الدنيا، فقال: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف: ١٣]، فالراسخون والهُدَّاة يأتون للحق لأنه كذلك في نفسه، ولتحقق هذا المعنى فلا بدَّ أن يعيشوه في بيئة الصبر والانتظار.

إنَّ أساس ضلال البشرية جمعاء هو الخضوع للبيئة، وعامة كُفر النَّاس إنما هو سببها، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقد حذرهم من هذا وهم في ظهور آبائهم قائلاً: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣]، وهذا قد فُسِر في حديث النَّبيِّ ﷺ بقوله: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ..**»[1]. فبيئة النَّصر لا يجوز أن تصنع للهداة مزيد إيمان بدينهم وقِيَّمهم ودعوتهم، وبيئة الهزيمة لا يجوز أن تصنع فيهم ضُعف الإيمان على هذه القِيَّم، ولكنَّ العجيب أنَّ البعض يزعم أنه اهتدى للحقِّ حين دخل الظرف البيئي الجديد، وهذا كافٍ أن يشيب النوايا بكلِّ التُّهم والظُنون، ولذلك مِن حقِّ كلِّ ناظرٍ أن يقول: أنا لا أثِقُ بكلام رجلٍ يُساوِمُ بين قِيَّمه ومنافعه وهو في ظرف الصبر والابتلاء، وهو قول تُؤيده الأحكام الشرعية المُستقرة.

بلا شك سينشأ سؤالٌ وهو حاضرٌ في أذهان القادة والمسؤولين، وهو سؤال تحكمه قواعد المصالح التي حطت بشرِّها في عُمْقِ العقل الفقهي المُعاصر الذي أفسدَ الشرع وحقيقته، وهو السؤال الذي يعترفُ صاحبه أنه قد تنازلَ مُقابل رفع البلاء عنِ الأتباع، وقدم لخصمه بعض ما يريد حتى يخففَ عنِ النَّاس محنتهم

[1] «صحيح البخاري»: ١/٤٦٥/ح١٣٦١ .

وظُروفهم وسأتركُ الإجابة على هذه المُوازنة حتى يأتي مكانها في هذا الحديث العظيم الذي هو من الأحاديث اللازمة لمعالجة النفوس في هذا الظرف وهذه البيئة.

فقد روى البخاريُّ[1] في مواطن عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «**شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ T وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا. فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**».

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم في مكة على مراتب من عذاب قريش عليهم، فهناك من لا سندَ له البتة من الحِماية أو الاحترام والتقدير فهؤلاء هم الأكثر عذاباً وإهانةَ وكان من هؤلاء خباب بن الأرت رضي الله عنه، فقد أخرج ابن سعد عن الشعبي قال: «دَخَلَ خَبَّابُ بْنُ الأَرَت رضي الله عنه عَلى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَأَجْلَسَهُ عَلى مُتَّكَئِهِ، فَقَالَ: مَا عَلى الأَرْضِ أَحَدٌ أَحَقُّ بِهذَا الَمجْلِسِ مِنْ هذَا إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ، قَالَ لَهُ خَبَّابٌ: مَنْ هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: بِلاَلٌ رضي الله عنه، قَالَ: فَقَالَ لَهُ خَبَّابٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا هُوَ بِأَحق مِني، إِنَّ بِلاَلاً كَانَ لَهُ فِي الْمُشْرِكِينَ مَنْ يمنعُهُ اللهُ تَعالى بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِي أَحَدٌ يمنَعُنِي، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَاً أَخَذُونِي وَأَوْقَدُوا لِي نَاراً ثُمَّ

[1] «صحيح البخاري»: ٢٥٤٦/٦/ح٦٩٤٣. طرفاه ٣٦١٢، ٣٨٥٢.

سَلَقُونِي فِيهَا، ثُمَّ وَضَعَ رَجُلٌ رِجْلَهُ عَلى صَدْرِي، فَمَا اتَّقَيْتُ الأَرْضَ ـ أَوْ قَالَ: بَرَدَ الأَرْضِ ـ إلاَّ بِظَهْرِي، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ ظَهْرِهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ بَرِصَ»[1].

وخباب رضي الله عنه كان قيناً؛ أي حداداً، ففي الصحيح[2] أنَّ مسروق بن الأجدع حدث عن خباب أنه قال: «كنتُ رجُلاً قَيناً، وكان لي على العاصي بن وائلٍ دَينٌ، فأتيتهُ أتقاضاه. فقال لي: لا أقْضِيكَ حتّى تكفُرَ بمحمَّدٍ، قال: قلتُ لن أكفرَ به حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لمبعوثٌ من بعد الموت؟ فسوف أقضِيكَ إذا رَجَعتُ إلى مالٍ وولد. قال: فنزلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

هذا قوله رضي الله عنه عن نفسه ومُقارنة ما كان يجد هو ويجد بلال، مع أنَّ بلال كان يجد الكثير من العذاب في الله تعالى، فقد روى أحمد[3] وابن ماجه[4] وصحح البويصري[5] سنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلاَمَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلاَلٌ، وَالْمِقْدَادُ. فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ. وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ. وَأَمَّا سَائِرُهُمْ، فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ. فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا. إِلاَّ بِلاَلاً. فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ. فَأَخَذُوهُ، فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ. فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ».

---

[1] «الطبقات الكبرى» المشهور بـ«طبقات ابن سعد»: طبقات البدريين من المهاجرين، ذكر ما أوصى به عبد الله بن مسعود.

[2] «صحيح البخاري»: ٤/١٧٦٢/ح٤٦١٧، ٢/٧٩٥/ح٢٢٤١.

[3] «مُسند أحمد»: ١/٦٦٧/ح٣٨٣١.

[4] «سُنن ابن ماجه»: ١/٥٣/ح١٥٤.

[5] «مصباح الزجاجة»: ١/٦٤/ح٥٥.

وهذا لا يعني أبداً أنَّ الممنوعين من قريش لسببٍ من الأسباب لم يكنْ لهم نصيبٌ مِن الإيذاء والصبر في الله تعالى، فهذا رسول الله ﷺ الممنوع بعمِّه يلقى من قريش الكثير، فقد أخرج البخاري[1] عن عُروةُ بن الزُّبير قال: سألتُ ابنَ عمرو بن العاص: أخبِرْني بأشدِّ شيءٍ صنَعه المشركون بالنَّبيِّ ﷺ. قال: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بن أَبِي مُعَيطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقاً شَدِيداً، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الآية [غافر: ٢٨].

وعند أحمد[2] مطولاً ومجوداً عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا أَكْثَرُ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشاً، أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عَدَاوَتِهِ؟ قَالَ: «حَضَرْتُهُمْ، وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْماً فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلاَمَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جمَاعَتَنَا، وسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا. قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي، حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفاً بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ. قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، ثُمَّ مَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ، فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا. فَقَالَ: «**تَسْمَعُونَ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ**»، فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ، لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِداً، فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولاً. قَالَ: فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،

[1] «صحيح البخاري»: ٣/١٤٠٠/ح٣٧٦٩.
[2] «مُسند أحمد»: ٢/٤٣٨/ح٧٠١٦.

حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ، اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ. قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ**». قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ. قَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رضي الله عنه، دُونَهُ يَقُولُ، وَهُوَ يَبْكِي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشاً بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ».

أما ما وقع لأبي بكر رضي الله عنه في هذا فقد وصفت حاله ابنته أسماء رضي الله عنها، فإنها قالت عن خبره وقوله لقريش: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ [غافر: ٢٨]. قالت: «فَلَهَوْا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَقْبَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَرَجَعَ إِلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ لاَ يَمَسُّ شَيْئاً مِنْ غَدَائِرِهِ[١] إِلاَّ جَاءَ مَعَهُ وَهُوَ يَقُول: تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ»[٢].

فهذا الحال هو سِمَّةُ المؤمنين في مكة يومها، وقد طال عليهم هذا الأمر حتى ظنوه أنه سيكون إلى الموت والأبد، كما ذكر هذا عثمان رضي الله عنه فإنه قال: «بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ بِالْبَطْحَاءِ، إِذْ بِعَمَّارٍ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ رضي الله عنهم يُعَذبُونَ فِي الشَّمْسِ لِيَرْتَدُّوا عَنِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ: يَا رَسُولَ الله هكَذَا؟ فَقَالَ: «**صَبْراً يَا آلَ يَاسِرٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ ـ وَقَدْ فَعَلْتَ ـ**»[٣].

---

[1] الغَديرة: الخُصلة من الشعر، والجمع الغدائر، وهي المَضْفُورة، فإن عُقِصَت فهي القُرُون، وإن أُرسلت مضفورةً فهي الغَدائِرُ.

[2] «مُسند الحُميدي»: ١/١٥٥/ح٣٢٦.

[3] «جامع المسانيد والمراسيل»: ٢١/٥٤/ح١٨٣١٩.

وفي سؤال خباب لرسول الله ﷺ هذا المعنى، إذ يشكو أنَّ الأمر قد طال وامتد، وهي سِنون قاسية شديدة، لم تكل قريش خلالها عن سنتها، وليس هناك من أمورٍ في عالَم الشهادة تتشكل لتعطي بعض الأمل أنَّ الحال في تغيُّرٍ وانقلابٍ، وهم ينتظرون وينتظرون، وكلما طال الزمن طال الألم واشتد صراع النفس وحديثها، هذا الصراع والحديث الذي يختبر الإيمان بالوعد القادم أنَّ العاقبة للمتقين.

هل يبعد في هذه الحالة أن ينشأ السؤال الذي ينشأ اليوم بسبب طُول الطريق واستعجال النتائج أنَّ المشكلة في «تكلسنا» و«جمودنا»؟ هذا «الجمود» و«التكلس» الذي سلكناه في أول الطريق بسبب أُفق الإيمان في ابتدائه الذي فرض القيمة والشعار: «إما نحن أو أنتم»، ولا لقاء بين ديننا ودينكم، ولا بين قِيَّمنا وقِيَّمكم.

هل كنا في غرورٍ في إمكانية أن نكون الوارثين للغد القادم فلا يكون إلاَّ نحن بديننا دون بقية الآخرين بأديانهم الباطلة؟

ها نحن بسبب هذا «التكلس» و«الجمود» نُعاني الوحدة في فضاءٍ مُعَادٍ، والأُفق المُظلم الذي لا تبدو له نهاية، فلنتركِ الوراثة للأجيال التالية، وإدارة الواقع اليوم تقتضي الحِفاظ على الوجود من خلال قبول المُشاركة أو المُناصفة.

هذه أسئلة الحِكمة المزعومة، وهي فرضيات الإدارة التي تلغي الصِّراع على أساس الدين، وإنما على أساس برامج الإصلاح الدنيوي بين الفُرقاء.

يقولون: إنها سنون طويلة لم نحقق فيها أي إنجازٍ ظاهرٍ، وها هم غيرنا ممن قبلوا المُشاركة قد كَثُرَ أتباعهم، وجذروا وُجودهم، وفرضوا قِيَّمهم، وأما نحن فقد احتوتنا عقائد كُلية لم نستطع عزلها عن مفهوم إدارة الصِّراع فوقعنا في عالَم الشعارات التي أقامتنا في مكاننا الأول الذي بدأنا فيه؛ هكذا يقول حُكماء

العصر!! ودهاقنة سياسة العقيدة الإسلامية الذين أرهقهم الانتظار، وكسرهم الصبر!! فكانت مرحلة إعادة النظر ومُراجعة الحسابات.

وحين يذهب هؤلاء هناك ويبقى الصابرون المُنتظرون تزداد فيهم آلام الإغراء بما ينشأ في عدوة الذاهبين من استقرار، وفقاعات نصرٍ ظاهرٍ، أو إنجازٍ رقميٍّ خادعٍ، وأما هم فليس لحالهم إلاَّ وصفٌ وحيدٌ هو الصبر، ويأتي المُخلصون إلى أنفسهم وعلى أئمتهم وقادتهم يتساءلون: الدهر هكذا؟ وليس هناك إلاَّ جواب وحيدٌ من أنفسهم لأنفسهم: صبراً.

هذا خباب رضي الله عنه يأتي لرسول الله ﷺ لا ليعرض عليه تنازلاً أتى به من قريش، ولا يدعوه لمراجعة إدارة الصراع، ولا لفتق حِكمةٍ غائبةٍ غير الصبر والثبات بل يسأله أن يدعو الله لهم، دعاءً يخفف عنهم به البلاء، أو يحصل فيه الظفر بهلكة عدوِّهم كما وقع من نوح عليه السلام حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦].

إنه مجرد طلب الدعاء ليحصل التغيِّير أو بعض التغيِّير، فقد زاد عناؤهم، واشتدت وطأة قريش عليهم، فهل في هذا ما يُغضب؟!

لكن رسول الله ﷺ قعد وهو محمر الوجه غضباً من هذا الطلب الذي فيه معنى الشكوى، ذلك لأنَّ للإيمان بالله تاريخٌ مع هذا الحال، ولا بدَّ للمؤمن أن يستوفي هذا التاريخ، كما أنَّ للجنين سُنَّة البقاء في الرحم، ولا بدَّ أنْ يستوفي زمانه حتى يخرج سليماً معافىً، لا أن يسقطَ خداجاً، والمرء يدعو ربَّه أن يتم له هذا الأمر، وأن يكون عاقبته خيراً، ولكن هذه العاقبة لا تكون خيراً إلاَّ بعد تمام سنتها الزمانية، فلذلك مِن التعدي في الدعاء أن يطلب المرء طلباً على غير السنَّة القَدرية، كمن يطلبُ ولادة جنينٍ من بطن أُمِّهِ قبل استيفاء زمانه السنني له، أو كمن طلب الولد من غير الرحم؛ أي بيئته السننية له. ولهذا غضب النبي ﷺ من هذا الطلب، فالدعاء هو فعلٌ شرعيٌّ لتحقيق أمرٍ قدريٍّ، وهو سببٌ من أسباب

القَدر، ولا يجوز تصور سببٍ على خلاف السنَّة، فإنَّ تصوُّر أو إيقاعَ هذا السبب إما أن يكون محرماً كمن طلب الشفاء بالسحر أو الخمر أو لا يكون شيئاً لا في المعنى الشرعي ولا في المعنى القَدري كمن يستقوي بالهواء لردِّ الجُوعِ والضعف، فإن طلبه له يقع بهذا الفعل، أو أن يكون هذا الفعل باطلٌ في القَدر بدعة في الشرع كمن يظن أنَّ الرقص الصوفي يحقق له الشفاء من المرض أو زيادة الرزق كما يقول أصحابه المُبتدعة.

فطلب الدعاء على ما وقع من خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما كان واقعه يدل على أحدِ أمريْنِ أو كِلاهما: إما تغيِّيراً لحال الإيمان مع البلاء، وهذا تغييرٌ لسنته الجارية في التاريخ، أو استعجالاً للعاقبة قبل استيفاءِ زمانها، ولهذا غضب النبي ﷺ من هذا الطلب، وجاء جوابه ﷺ على هذين الأمرين جميعاً.

فإذا كان الحبيب المصطفى ﷺ يرد هذه المعاني وقد طُلبت من وجهٍ شرعيٍّ وهو الدعاء فكيف لو طُلبت من غير وجهٍ شرعيٍّ كمن يُبدل ويُغيِّر، أو يُنقص مِن الحقِّ الذي يعتقده ليملأه بالباطل عند الأغيار؟!

إنَّ الهروب من تاريخ الإيمان وبيئته القَدرية المُصاحبة له لا يتحقق أبداً، فإنْ وقعَ لطائفةٍ فإنما يقع بسبب ضُعف الإيمان أو زواله، فشِدَّة البلاء تتناسب مع شِدَّة الإيمان. فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلتُ: «يا رسول الله أي النَّاس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل مِن النَّاس، يُبتلى الرجل على حسبِ دينه ، فإنْ كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإنْ كان في دينه رِقَّة خُفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة**»[1]. والمقصود في الإيمان هنا معاني منها التمسك بالحقِّ وقواعده وأحكامه، فحين تطلب الجاهلية من أحدهم أن يتخلى عن قاعدةٍ من قواعد الشرع أو حُكْماً

[1] «مُسند أحمد»: ١/٢٨/ح١٤٩٣ .

من أحكامه، فيهب ليستره أو يُؤوله أو يُؤجله، فتلقي له الجاهلية بعض الفُتات، وتَرخي له في الحبل، وتبث له ببعض الرضا فإنَّ هذا يعني ضُعف الإيمان منه، فهذا ما يحكم به الرسول ﷺ وتقتضيه سُنن الإيمان وتاريخه، أما المُعاصرون فيَعُدُّونَ هذا من حِكمة الدعوة وإدارة الصِّراع وحُسنِ الفقه والرسوخ فيه.

لقد آمن السحرة بموسى وهارون عليهما السلام، وكفروا بفرعون، فلما رأوا إطباق الحال عليهم وأنه لا مناصَ من مُواجهة الصلب الذي توعدهم به فرعون لم يصدر منهم دعاءً بتغيُّر الحال، ولا بانقلاب الموقف بل سألوا سؤالاً واحداً وهو: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: ١٢٦]، ذلك بأنَّ وقوفَ المرء أمام المقصلى ليُواجه الشهادة ولِقاء الله ثم يخر داعياً خائفاً من هذا الموقف بأن يُغيِّرَ الله الحال ويصرف عنه هذا الكأس فإنَّ دعاءه هذا إنما هو ضُعف إيمان، يُوعظ فيه مِن قِبَلْ إمامه بأنْ يقفَ ها هنا صابراً محتسباً داعياً ربَّه أن يقبل منه البيع وأنْ يغفر له الذنب، وهذا هو فعل رسول الله ﷺ وعظته لأصحابه بأن يقفوا ويصبروا ويدعوا الله تعالى بأن يُثبت أقدامهم حتى يأتي الوعد في زمانه السنني له.

فحين تشكو المرأة لأختها أو لأخيها أو زوجها بأنَّ الآلام قد برحت بها للحمل في بطنها ثم تطلب منهم أن يدعوا الله تعالى لها بأنْ يُعجل في الولادة قبل أوانها، فإنَّ هؤلاء لا يَقبلون طلبها، بل ينصحونها بالصبر والثبات، وهم بإيمانهم يدعون الله تعالى بأن يُصبرها وأن تكون العاقبة خيراً بالجنين تاماً سليماً، والعاقبة على هذا المعنى لا تكون إلاَّ في زمانها السنني المُلائم لها، ولكن يمكن للمرأة أن تخرج من هذه الآلام مبكراً بإسقاط الجنين، كما يمكن للمُبتلى في سبيل الله أن يخرج من البلاء بالخروج من الإيمان أو بعضه، وهذا ما يقع به الكثيرون، وذلك بالاعتذار عنِ الحقِّ أو تأجيل حقائقه، فيحصل لهمُ المطلوب؛ أي بالخروج مِن البلاء أو بعضه، ولكن مُقابل ذلك خرجوا من اثنين هنا الإيمان أو بعضه، وخرجوا كذلك من مرتبة الإمامة التي كانت تنتظرهم ليقع الوعد عليهم بالنَّصر

والتأييد، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤]، ففاتهم هذا النَّصر وهو أشد الأمرين لو كانوا يعلمون.

إنَّ طلب الدعاء هنا في حال خباب رضي الله عنه يحمل كما تقدم دلالتين هما: طلب تغيِّير الحال لِشَدَّة العَناء، وهذا علاجه الصبر وقراءة تاريخ الإيمان الدال أن بين البلاء والإيمان اقترانٌ قدريٌّ، كما قال تعالى: ﴿ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وآيات أُخرى في هذا المعنى.

وأما الدلالة الثانية هو استعجال نتيجة الإيمان أي النَّصر والتأييد، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

والدعاء ها هنا في هذين الأمرين ليس محبوباً ولا شرعياً، ولذلك لم يستجب له رسول الله ﷺ، هذا مع علم قارئ سيرته ﷺ في طلب الآخرين منه الدعاء على وجوه منها:-

◈ أن يستجيب للسائل، فيدعو الله تعالى ويحصل المطلوب، وفي هذا أحاديث كثيرة منها ما رواه أنس رضي الله عنه في استسقائه، ففي الصحيحين[1] عنه رضي الله عنه قال: «أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ. مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ. وَرَسُولُ اللهِ قَائِمٌ يَخْطُبُ. فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ قَائِماً. ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ. فَادْعُ اللهَ يُغِثْنَا. قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ يَدَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ**

[1] «صحيح البخاري»: ١/٣٤٣/ح١٠٠٠، ١/٣٤٤/ح١٠٠١. «صحيح مسلم»: ٦/١٦٠/ح٢٠٢٨ .

أَغِثْنَا. اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا». قَالَ أَنَسٌ: وَلاَ وَاللهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلاَ قَزَعَةٍ. وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلاَ دَارٍ. قَالَ فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ قَالَ: فَلاَ وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتاً. قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ. وَرَسُولُ اللّهِ قَائِمٌ يَخْطُبُ. فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِماً. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ. فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا. قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ يَدَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَلْنَا وَلاَ عَلَيْنَا. اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**» فَانْقَلَعَتْ. وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ. قَالَ شَرِيكٌ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: أَهُوَ الرَّجُلُ الأَوَّلُ؟ قَالَ: لاَ أَدْرِي».

ومثله طلب جرير بن عبد الله منه أن يدعو الله له أن يثبته على الخيل فقال: ولقد شكوتُ إليه أني لا أُثبتُ عَلَى الخيل، فضَربَ بيدهِ في صدري وقال: «**اللَّهَمَّ ثَبِّتْهُ واجعَلْهُ هادِياً مَهْدِيّاً**»[1].

ومثله طلب أُمُّ سُلَيْمٍ رضي الله عنها الدعاء لولدها أنس بن مالك فقالت: أَنَسٌ خَادِمُكَ. قال: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**»[2].

وقد كانوا يستستقون به فيدعو الله لهم كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا باب فيه أحاديث كثيرة تدل عليه.

◈ وفي مرات كان النبي ﷺ يخيِّرِ السائل بين الدعاء وبين ما هو خيرٌ مِن حاجته وقضائها، كما وقع مع المرأة التي كانت تُصرع، فعن عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ:

---

[1] «صحيح البخاري»: ١١٠٤/٣/ح٢٩٦٩، ١١٠٠/٣/ح٢٩٥٣، ١١١٩/٣/ح٣٠٠٩، ١٥٨٣/٤/ح٤٢٥٠-٤٢٥١، ٢٢٦٠/٥/ح٦٠٨٩. طرفاه ٣٠٣٥، ٣٨٢٢، ٢٣٣٣/٥/ح٦٣٣٣. أطرافه ٣٠٢٠، ٣٠٣٦، ٣٠٧٦، ٣٨٢٣، ٤٣٥٥، ٤٣٥٦. «صحيح مسلم»: ٣٠/١٦/ح٦٣١٧، ٣١/١٦/ح٦٣١٩.

[2] «صحيح البخاري»: ٢٣٣٣/٥/ح٦٣٣٤. أطرافه ١٩٨٢، ٦٣٤٤، ٦٣٧٨، ٦٣٨٠. «صحيح مسلم»: ٣٤/١٦/ح٦٣٢٥.

قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي. قَالَ: **«إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»**. فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا.[1].

ومثله ما رواه أحمد[2] وأبو يعلى[3] وابن حبان[4] في «صحيحه» عن جابر رضي الله عنه قال: «اسْتَأْذَنَتِ الحُمَّى عَلَى النَبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **«مَنْ هذِهِ؟»** قالت: أُمُّ مِلْدَمٍ، فَأَمَرَ بِهَا إِلى أَهْلِ قَبَاءَ، فَلَقُوا مِنْهَا مَا يَعْلَم الله، فَأَتَوْهُ، فَشَكُوا ذَلِكَ إِليهِ، فقال: **«مَا شِئْتُمْ؟، إِنْ شِئْتُم دَعَوْتُ الله فَيَكَشِفَهَا عَنْكُمْ، وإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ طَهُوراً؟»** قالوا: يا رسولَ الله أَوتَفْعَلُ؟. قال: **«نَعم»** قالوا: فَدَعْها».

◈ وفي حال آخرٍ كان ﷺ لا يستجيب لسائله لمعنًى غير شرعيٍّ في طلب السائل كما في حديث خباب هذا، وكما في نهيه أم حبيبة رضي الله عنها عما عَلِمَ تقديره وفراغ الكتاب فيه، فعن ابن مسعود قال: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ، زَوْجُ النَّبِيِّ: «اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي، رَسُولِ اللهِ. وَبِأَبِي، أَبِي سُفْيَانَ. وَبِأَخِي، مُعَاوِيَةَ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِي ﷺ: **«قَدْ سَأَلْتِ اللهِ لآجَال مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّام مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاق مَقْسُومَةٍ. لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ حِلِّهِ. أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئاً عَنْ حِلِّهِ. وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهِ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ»**.

قَالَ وَذُكِرَتْ عِنْدَهُ الْقِرَدَةُ. قَالَ مِسْعَرٌ: وَأُرَاهُ قَالَ وَالْخَنَازِيرُ مِنْ مَسْخٍ. فَقَالَ **«إِنَّ اللّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلاَ عَقِباً. وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ»**[5].

---

[1] «صحيح البخاري»: ٥/٢١٤٠/ح٥٦٥٢. «صحيح مسلم»: ١٦/١١٢/ح٦٥٢٣.
[2] «مُسند أحمد»: ٤/٢٥٧/ح١٤١٠٥، واللفظ له.
[3] «مُسند أبي يعلى»: ١١/٢٣٣/ح١٨٩٢.
[4] «صحيح ابن حبان»: ٣/٤٥٥/ح٢٩٠٨.
[5] «صحيح مسلم»: ١٦/١٨٢/ح٦٧٢١.

والمعنى الذي تقدم في حديث خباب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو المعنى الذي ترك من أجله ﷺ الدعاء بتخفيف وطأة المرض عليه فقد روت فاطمة بنتُ اليمان أخت حُذيفة قَالَتْ: «أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ فِي نِسَاءٍ نَعُودُهُ، فَإِذَا بِسِقَاءٍ مُعَلَّقٍ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنَ الحُمَّى، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ!: لَوْ دَعَوْتَ اللهَ فَكَشَفَ عَنْكَ، قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم**»[1].

وفي عدم إجابة بعض سائليه الدعاء أحاديث أُخرى منها ما رواه أبو نعيم[2] عن بشير بن الْخصَاصِيَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ: «**احْمَدِ اللهَ الَّذِي جَاءَ بِكَ مِنْ رَبِيعَةَ الْقَشْعَمِ حَتَّى أَسْلَمْتَ عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللهِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يُمِيتَنِي قَبْلَكَ، قَالَ: «**لَسْتُ أَدْعُو بِهذَا لأَحَدٍ**».

وهكذا يدل على أنَّ الدعاء مع شرعية أصله إلاَّ أنه لا يُشرع إنْ كان بلا معنًى أو طلباً لمعنًى غير شرعيٍّ أو كان دافعه معنى غير محبوب إلى الله تعالى، ولهذا لم يدعُ رسول الله ﷺ برفع شِدَّة البلاء عنه لأنَّ هذا هو سُنته مع الأنبياء في وعكهم ومَرضهم، وكذلك لم يدعُ لخباب لأنَّ هذا البلاء والصبر هو سُنة الله الجارية مع المؤمنين، فإنَّ المرءَ وإنْ دعا ربَّه برفع البلاء، لكنه عليه أن يدعوَ بلا جزعٍ لِطُول المسير، ولا استعجالاً للشيء قبل أوانه.

وهذا البلاء رحمةٌ للمؤمنين ومكرٌ بالمنافقين والكافرين، فإنَّ أهل الضلال يكون البلاء على المؤمنين سبباً في شكهم بالحقِّ الذي معهم، وأهل النفاق يكون سبباً لكشفهم في ضعف إيمانهم، لكنه في حقيقة الأمر هو خيرٌ ورحمةٌ للمؤمنين، فإنَّ بالبلاء تُرفع الدرجات، ويبلغُ المرء بها ما لا يبلغ بغيرها، والصبر عليه يكون سبباً لتحقيق النَّصر وإزالة استقرار الكافرين وسلطانهم، وهذا بيِّنٌ في سورة

---

[1] «سُنن النسائي الكبرى»: ٤/٣٥٥/ح٧٤٩٧.
[2] «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم الأصبهاني: ١/٣٥٥.

«العنكبوت» فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾ [العنكبوت: ١ـ ٤]، فإنَّ قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾ هو تهديدٌ لهم في استقرارهم الحالي وفَرحهم الآني، وفي فراغهم عنِ البلاء في أول الأمر ثم إنهم على موعدٍ آتٍ من العذاب والبلاء، وهو بلاءٌ لا عاقبة له، ولا انتهاء، وفي هذا بيَّانٌ في افتراق بلاء المؤمنين عن بلاء غيرهم، فإنَّ بلاء المؤمنين له عاقبةٌ ولا عاقبةَ لعذابِ وبلاءِ الكافرين.

إنَّ عدم هذا الفقه وضُعفه هو الذي يُسرع بأصحابه إلى التغيِّير والتبديل رجاء الخروج من البلاء، ولو علموا تاريخ الإيمان وأنهم حلقة موصولة في هذا التاريخ لما وقعوا في سُبل التخفف من المراتب العُليا رجاء زوال البلاء أو بعضه، ولهذا قد فقههم رسول الله ﷺ بأمرين عظيمين هما: ضرب المثال بالسابقين وتذكيرهم بسنن طريق الإيمان وبلوغ الغايات والمراتب وتحقيق النَّصر، ثمَّ بالعاقبة الآتية والتي لا راد لها، إلاَّ أنَّ لها أجلاً معلوماً وقَدراً مضروباً ولا تغيِّير فيه.

فلا بدَّ للإيمان أن يعيش ظرفه القَدري، ولا بدَّ أن تجري عليه سُنته حتى يتحقق الوعد والظفر والنَّصر، والمثال الذي ضربه رسول الله ﷺ لأصحابه هو مثال الفِداء والتضحية والثبات حتى لو لم يكن لهم وعدٌ بالغَلبة، إنما هو الثبات من أجل الثبات وحده ليحصل الموت على الإيمان.

هذه القيمة هي خاصية هذا الدين في تاريخه كلِّه، وهو أنَّ اللاحقين به لا يأتون إليه لشيءٍ دنيوي قط حتى لو كان هذا الدنيوي هو النَّصر والغَلبة والظفر بالأعداء، بل يأتون إليه ليرضى عنهم ربّهم ويحصل لهمُ الموت على الإيمان فيتحقق لهم بلوغ الجِنان، فهذا فقه الإيمان ودلالته وتميُّزه عن غيره مِن القيَّم

الأُخرى والأديان الباطلة، فهذا الدين حقٌّ في نفسه، وهو يحقق مقصد الوجود الإنساني بتوحيد الله وعبادته، وليس لهم إلاَّ رضى الله وبلوغ الجِنان.

هذا هو تاريخ الإيمان، وهذا مثاله الحق، وما يحصل من الظفر والنَّصر الدنيوي هو من باب الرحمة الإلهية بالخَلق حتى لا تقع الفتنة والانصراف عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥]، فالبلاء هو السُّنَّة الحقيقية للإيمان، والنَّصر الحقيقي له هو الثبات عليه حتى الوفاة، ولذلك من أخطاء بعض المُصنفين المُعاصرين كأبي الأعلى المودودي هو قولهم: إنَّ بعض الأنبياء لم يتحقق لهم النَّصر التام، لأنهم تصوروا أن النَّصر لا يكون إلاَّ بالغلبة على الأعداء ظاهراً، مع أنَّ هذه هي زيادة في لغة القرآن ومنهجه وحِكمته، وقد حَكَمَ الله بالنَّصر لجميع الأنبياء بقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١]، وبعض الأنبياء قد قُتلوا، وكلهم قد أُخرجوا من ديارهم وهاجروا، فكان النَّصر هو ثباتهم، وهزيمة أعدائهم بعدم قُدرتهم في ردِّهم عنِ الحقِّ مع سُلطانهم وعذابهم وجبروتهم، فهذا هو النَّصر الأعظم في حقائق الوجود وبيان القرآن.

لقد بيَّن رسول الله ﷺ لخبَّاب ما كان يقع للسابقين من أحوال الصبر، وأنهم كانوا يُواجهون الموت عذاباً وابتلاءً دون أن يردَّهم هذا عن دينهم، ولا يعني هذا أبداً أنَّ حال أتباع الأنبياء السابقين خيرٌ من حال الصحابة، ولا مرتبتهم خيرٌ من مرتبة أصحاب النبي ﷺ، فإنَّ هذه الأُمَّة خير الأُمم، وخِيارها خيرٌ من خِيار بقية الأُمم، فالله عزَّ وجلَّ عندما أمر رسوله ﷺ بالاقتداء بالأنبياء لم يَعْنِ هذا أنَّ المُقتدى بهم خيرٌ من رسولنا ﷺ، ولكن هذا هو مقتضى سُنَّة التاريخ أنَّ اللاحق يقتدي بالأول وقد يبلغ التالي من الفضل ما لا يبلغ السابق، وهذا شبيهٌ بالعلم

وحمله، فإنَّ الرسول ﷺ قال: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[١]، وفضل أصحاب النبيِّ ﷺ جُملةً على فضل أصحاب وحواري الأنبياء السابقين له أسبابٌ عديدةٌ، منها ما هو ذاتي من الخير والإيمان في قلوبهم، ومنه ما هو لأسبابهم المُتعدية إلى غيرهم رضوان الله عليهم، وإنَّ مِن الخير المُتعدي لغيرهم ما أخبر به رسول الله ﷺ من وُقوع الأمان للعالم بسبب صبرهم وثباتهم على الدين، ذلك فإنه في هذا الخبر دليل فضل الصحابة رضوان الله عليهم، فإنَّ السابقين من الصالحين الصابرين قد حصلَ لهم من الخير لأنفسهم بقبول الله تعالى لهم، لكن صبر الصحابة رضوان الله عليهم قد وقع به الفضل والخير لأنفسهم وللعالَم كذلك، وهذا ما بيَّنه الحديث من الوعد الإلهي في حُصول الأمان لجزيرة العرب كما أخبر رسول الله ﷺ.

وسبب هذا الفضل هو اختلاف مقام الصبر بين الفريقين، فإنَّ العابد المُختلي لنفسه إنْ فُتن في دينه فلم ينكسر ولم يتراجع فإنَّ له فضلاً عظيماً، لكن ما يقع للدَّاعي والمجاهد من الصبر على دعوته وجهاده فيه فضلٌ زائدٌ ودرجته أعظم، وهذا ما كان يقع للصحابة رضوان الله عليهم، فقريش وإنْ آذتهم بسبب إيمانهم ومُفارقتهم كُفرهم وشِركهم، لكن عامة ما كان يقع لهم من البلاء إنما سببه مُهاجمتهم وانكسارهم وجهادهم بالقرآن قريش ودينها وقيِّمها، وقد كانوا على استعدادٍ للثبات على الدين حتى لو حُرِّقُوا أو قُتِّلُوا، فإنَّ المرء لا يبلغ حقيقة الإيمان إلاَّ بهذا، كما قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ: أَنْ يَكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّارِ**»[٢]. وفي لفظ: «**أَنْ**

[1] «مُسند أحمد»: ٦/٢٣٣/ح٢١٢٠٨.

[2] «صحيح البخاري»: ١/١٤/ح١٦، ١/١٦/ح٢١، ٦/٢٥٤٦/ح٦٩٤١.

يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ»[١]. وكِلاهما في الصحيحين، وهم ولا شك قد حصل لهم هذه المرتبة العظيمة، فلا أحد أعظم بعد الأنبياء من أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا معه في مكة.

وقوله ﷺ هذا لخباب هو إعدادٌ لهم لِما سيكون من حالٍ آخرٍ غير ما هم فيه، لأنَّ الجزيرة العربية، وخاصة خارج القُرى كمكة والمدينة والطائف كانت أرض فساد وطراد وقُطاع طريق، وهذا ما قاله عدي بن حاتم لما سمع قريباً من هذا الوعد، فقال: «فأَيْنَ دُعَّارُ طَيِىء؟!»[٢] أي سُراقها وقُطاع الطريق فيها، وهذا الوعد الإلهي على لسان رسول الله ﷺ لم يضطرب فيه إسلام النَّاس وإيمانهم بل كان فيه الزيادة على ذلك وهو الأمان وقطعِ الفساد، فمشروع الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ وقضيته ليست أمراً اعتقادياً فقط، بل فيه قضايا وُجودية وحياتية واجتماعية واقتصادية، فكما أنَّه يُصارع ضلال العقائد الفاسدة، فكذلك هو يجاهد ويحارب قضايا الفساد في جوانب الحياة الأخرى، فدل هذا أنَّ التوحيد الذي كان يتعلمه الصحابي في مكة في ابتداء أمره له مفهومٌ شاملٌ، فيعلمون أنَّ ما هو مطلوب من هذا التوحيد غير قضايا الاعتقاد الباطني، ذلك لأنَّ هذه المرتبة من الأمان مرحلة لا يبلغها النَّاس حتَّى يأتون على كلِّ قواعد وأُسس الفساد، فالزعم الذي يقوله المجرمون في حقِّ الإسلام ورسول الله ﷺ بأنَّ مفهوم الدين تطور بحسب النجاح والواقع، أو أنَّ مشروع الدولة والسلطان أمرٌ لاحِقٌ في التاريخ ولم يكن في ابتداء الدعوة هو زعمٌ كاذبٌ ضالٌ مُفترى، بل ما يؤكد أنَّ مفهوم السلطان وصِراع الكفر ومجاهدته ومُغالبته هو أمرٌ مقارنٌ لكلمة التوحيد في يومها الأول هو ما كان يعد به رسول الله ﷺ قريش إنْ أسلمتْ، بأن يخضع لها

[1] «صحيح مسلم»: ٢/١٣/ح١٢٩.
[2] «صحيح البخاري»: ٣/١٣١٦/ح٣٥١٧.

العرب ويدفع العجم الجزية[1]، وهذا الوعد لا يكون إلاَّ بسلطانٍ وجهادٍ وغلبةٍ وقوةٍ.

لذلك فمن مسؤولية هذه الأُمة ومِن الواجبات التي ألقاها الله عليها هو تحقيق الأمان لهذا العالم بهذا الدين، وبغياب الدين يكون الفساد والظلم والخِيانة، وكيف لا يكون هذا من دين الله تعالى ورسول الله ﷺ قد جعله منه، بقوله: **«ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ»** فهذا الأمان وغلبة الدين على غيره حتى يزول الفساد هو من تمام هذا الدين، فهو منه، فكما أن الله أتم الدين تشريفاً وأحكاماً، بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فإنَّ تمام هذا الأمر هو حصول الأمان والقضاء على الفساد.

وفي القرآن الكريم اقترانٌ بين الهُدى والنَّصر، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

فالحق لا بدَّ له من أعداءٍ يخالفونه ويُعادونه، ويجهدون في رده وإطفائه، ولكن عاقبة هذه المُخالفة والمُعاداة هو ظهور هذا الدين ونصره، وفي الآية الأولى بيان أنَّ تمام الدين كائنٌ لا محالة، وفي الآية الثانية بيان أنَّ هذا التمام لا يكون إلا بالظهور، هذا مع بيان أنَّ الظهور يجب فهمه من خلال مُلائمة صاحب الحقِّ لواقعه، فقد تقدم أنَّ ثبات أهل الإيمان على إيمانهم هو أعظم الظهور والنَّصر كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].



[1] «السنن الكبرى للبيهقي»: ١٤/١٥/ح١٩٠٢٣ . «سنن النسائي الكُبرى»: ٥/٢٣٥/ح٨٦٧٦ .

إضاءة:

ذكر ابن حجر في «الفتح»[1] أنَّ بعض الفقهاء قال بجواز سفر المرأة في زمن الأمان وحدها دون محرمٍ أخذاً بحديث عدي بن حاتم، والذي فيه أنه قال: «بَينا أنا عندَ النبيِّ ﷺ إذا أتاهُ رجُلٌ فشَكا إِليهِ الفاقَةَ، ثمَّ أتاهُ آخَرُ فشكا إليه قَطعَ السبيل، فقال: «**يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ؟**». قلتُ: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: «**فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ[2] ترتحِلُ منَ الحِيرةِ[3] حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ - قلتُ فيما بيني وبينَ نفْسي فأين دُعّارُ طَيِّء[4] الذينَ قد سَعَّروا البلادَ؟[5] - ولَئِنْ طالَتْ بِكَ حيَاةٌ لَتُفتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى[6]**». قُلْتُ: كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ قال: «**كِسْرَى بنُ هُرْمُزَ، ولَئِنْ طالَتْ بِكَ حَياةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أحَداً يَقْبَلُهُ مِنْهُ ولَيَلْقَيَنَّ الله أحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاه ولَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ تُرْجُمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إِليكَ رسولاً فيُبلِّغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفضِلْ عليك؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَسارهِ فلا يَرى إلا جهنَّم**». قال

---

[1] «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: ٧/٢٧٧.

[2] **الظعينة**: المرأة في الهودج، وهو في الأصل اسم للهودج.

[3] **الحِيرة**: كانت بلد ملوك العرب الذين تحت حكم آل فارس، وكان ملكهم يومئذ أياس بن قبيصة الطائي وليها من تحت يد كسرى بعد قتل النعمان بن المنذر.

[4] **دعار طيء**: الدعار جمع داعر وهو بمهملتين، وهو الشاطر الخبيث المفسد، وأصله عود داعر إذا كان كثير الدخان. قال الجواليقي: والعامة تقوله بالذال المعجمة فكأنهم ذهبوا به إلى معنى الفزع، والمعروف الأول، والمُراد قُطاع الطريق. **وطيء**: قبيلة مشهورة، منها عدي بن حاتم المذكور، وبلادهم ما بين العراق والحجاز، وكانوا يقطعون الطريق على من مرَّ عليهم بغير جواز، ولذلك تعجب عدي كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة.

[5] **سعروا البلاد**: أي أوقدوا نار الفتنة، أي ملأوا الأرض شراً وفساداً، وهو مستعار من استعار النَّار وهو توقدها.

[6] كنوز كسرى: وهو علم على من ملك الفرس، لكن كانت المقالة في زمن كسرى بن هرمز، ولذلك استفهم عدي بن حاتم عنه، وإنما قال ذلك لعظمة كسرى في نفسه إذ ذاك.

عَدِيٌّ: سمعتُ النَبِيَّ ﷺ يقول: «**اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبةٍ**». قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى بنِ هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النَّبيُّ أبو القاسم ﷺ: «**يُخرجُ مِلءَ كفه**».

وهذا المعنى الذي قاله مَن ذكرهم من غير تسمية ابن حجر قاله ونشره بعض المُعاصرين دون أن ينسب الفقه لغيره، بل زعم أنه صاحبه وابن بَكرته، مع أنَّ هذا القول خطأ في الشرع، سواء كان قديماً أم حديثاً، وكون أنَّ للمعاصر سلفاً قد سبقه إليه لا يعني أنه مُصِيبٌ، خاصة أنَّ هذا المُتأخر لا يعنيه الدليل في قول المُتقدم، بل له منهجٌ آخرٌ في الاستدلال هو الاستحسان والتشهي تحت زعم التيسير حيناً، أو المصلحة حيناً آخر.

أما أنَّ هذا الحديث ليس فيه هذا المعنى الذي قالوه، فإنَّ السابقين هؤلاء قد أُتوا من خطئهم في معنى «الظعينة» الوارد في هذا الحديث، إذ ظنوه يعني المرأة، وهذا خطأ، فإنَّ الظعينة هي الركب، أو القافلة، فهذا ما يُصرف له اللفظ ابتداءاً، ويشهد لهذا أنَّ هذا الحديث ورد له ألفاظٌ أخرى تدل على هذا المعنى، وهو في الصحيح[1] كذلك فيه: «أما قَطعُ السبيلِ فإنهُ لا يأتي عليكَ إلاّ قليلٌ حتى تخرُجَ العِيرُ إلى مكةَ بغيرِ خَفِيرٍ». وسواءٌ كان هذا اللفظ هو من التصرف بالمعنى أو الرواية باللفظ فإنه هو المُراد دون غيره، لا كمن زعم أنَّ الظعينة هي المرأة، فإنَّ الظعن هو الارتحال، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠]، وهي تُطلق على الآلة أو ما فيها، ولذلك قالوا: الظعينة هي الهودج سواء كان فيه راكبته أم لا.

---

[1] «صحيح البخاري»: ٢/٥١٢/ح١٣٩٣.

ومقصود الحديث هو أنَّ الرواحل والقوافل تسير بغير حرسٍ لحصول الأمان لها، إذ أنَّ هذا ما يُقابل الفساد وقطع الطريق، لا أنَّ المرأة تسير وحدها لتحج من غير محرمٍ، فإنَّ هذا لا يُقابل الفساد الذي كان قبل الأمان الموعود في الحديث، إذ لو كان هذا المعنى للحديث لكان لفظ: «الظعينة» فرداً يدل على المرأة في هودجها، وهذا لا تفعله امرأة عاقلة قط، لأنَّ العاقلة سيمنعها هذا المسير الطويل من الحِيرة إلى مكة غير فساد الطريق مِن قُطاعه، بل ما هو أشد من ذلك، وهو عدم قوة المرأة على هذا السفر مُنفرداً دون صُحبةٍ مُطلقاً، سواء من محرمٍ أو من غيره، ولمنعها من ذلك أحاديث أخرى، وهو قوله ﷺ: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ والرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ والثلاثَةُ رَكْبٌ**»[1].

هذا وقد أخبر عدي رضي الله عنه بوقوع الحديث وبشارته، ولم يُعلم قط أنَّ في زمانه مَن أفتى للنساء بهذا المسير والحج مُنفردات بلا محرمٍ لهن، فالذي أراه هو مسير الرواحل والقوافل بلا حفير ولا حارس لعدم الخوف من قُطاع الطريق.

ثم مَن قال إنَّ عِلَّةَ وجود المحرم في السفر هو عدم الأمان من السرقة والقتل والنهب فقط، إذ لو كانت هذه العِلَّة لاضطردت في الرجال والنساء، فإنَّ مسيرة الرجل والرجلين في بيئة ما وصفه عدي رضي الله عنه من انتشار دعار طيء وسُعارهم وسعيرهم ضدَّ القوافل يكون فساداً وتعريضاً للنفس وهلكتها، فيمتنع شرعاً، إنما العلَّة غير ذلك، وهي ما وصفته زوجة أبي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ، وقد تعرض لها فاسق في الحج عمر بن ابي ربيعة وهي تطوف مُفردةً، فلما جاءتِ الغد، وجاء معها زوجها فلما رأها الفاسق مع زوجها هرب ولم يَعرض لها فقالت:-

[1] «مُسند أحمد»: ٢/٣٨٦/ح٦٧٢٩، ٢/٤٢٣/ح٦٩٨٨. «سُنن الترمذي»: ٥/٢٥٨/ح١٦٧٥. وقال: حديث ابن عمر حديث حسنٌ صحيحٌ. «سُنن أبي دواد»: ٧/٢٦٦/ح٢٦٠٨. «سُنن النسائي الكبرى»: ٥/٢٦٦/ح٨٧٥٦. «الموطأ»: ٤/٣٩١/ح١٨١١. «المُستدرك على الصحيحين»: ٢/١١٢/ح٢٥٣٥. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وشاهده حديث أبي هريرة صحيح على شرط مسلم.

تطوف الذئاب على مَن لا كلاب له ......

وهذا الأمر بيِّنٌ، ولولا الحيَّاء وإشاعة الفاحشة لَذكرتُ ها هنا من القصص الكثيرة قديماً وحديثاً الدالة على أنِّ قبول الرجل لهذا الأمر، وهو سفر عِرضه وحدها دالٌ على الدياثة، إلاَّ أن يكون السبب دينياً قاهراً كهجرة المرأة لزوجها، فإنَّ هذا قد وقع زمن رسول الله ﷺ فدل عليه النفس، والمسألة معروفة في مظانها، والحمد لله ربِّ العالمين.

أسلم عدي بن حاتم رضي الله عنه في منتصف السنة السابعة للهجرة، وعاش في الإسلام قريباً من ستين عاماً، ومات في خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فهل سُمِعَ في السابقين مَن أفتى امرأة تحج مُنفردة من الحيرة إلى مكة ليرى عدي هذا الحديث العجيب؟!.

ماذا كان يقدم النَّبي ﷺ الرؤوف لأصحابه في هذا الأتون، وهذه المحن؟

مما لا شكَّ فيه أنَّ قلب رسول الله ﷺ يحزن لما يُلاقيه أصحابه رضوان الله عليهم، ولكنه لم يكن يملك من القوة والقُدرة ما يدفع عنهم هذا البلاء، ولا يمكن لأحدٍ يعقل ما يخرج من رأسه أو يفهم واقع الإيمان وبيئته أن يقول ما يقوله الجاهلون اليوم من اتهام قادة الدعوة والجهاد بأنهم يقذفون الشباب للبلاء والموت، وأنهم سبب العذاب عليهم، بل إنَّ الجاهلين الضالين اليوم ليزيدون في الطنبور نغمة إذ يتهمونهم بهذا وهم في منأى عما يُلاقيه الضعفاء، ومما لا شك أنَّ العذاب البدني على مثل عمَّار وياسر وخباب كان أشد مما يُلاقيه رسول الله ﷺ، وهذا عند سدنة الكفر والضلال والجهل اليوم سبباً في توجيه الاتهام له أنه يحتمي بعمه وقومه ويترك الضعفاء ممن لا ذمة حامية لهم بلا غطاء ولا حماية، ولكن ما قدمه رسول الله ﷺ لهم الخير كله، وهو الرحمة كلها، وهو النَّعيم كله، إذ كل عذابٍ يهون أمام نعمة الإيمان، وإن كل ما يُلاقونه هو في كتاب، ولهم أجرهم يوم القيامة.

لكن هل كان لرسول الله ﷺ أن يُؤخر دعوتهم وإلحاقهم بهذا الدين حيث لا يجد لهمُ الحماية والقوة ليدفع عنهمُ الشرور والإيذاء بسبب هذا الإيمان؟

هذا السؤال لا ينشأ في قلب رجل يعلم معنى الإيمان، إنما ينشأ اليوم في أذهان الفقهاء الجُدد ومشايخ الفساد ممن يقبلون تأخير إسلام المرء ودخوله في الدين لأسباب هي أقل بكثير مما كان يقع للصحابة ﷺ، وأخبار هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق لِيُبَيِّنُنَّه للنَّاس ولا يكتمونَه فنبذوه وراء ظهورهم تأتي تترى، وبعضهم لا يستحي أن يقول كلمة الكفر: «إنَّ إسلام هؤلاء لا يزيد ولا ينقص الكفر»، وهي كلمة كُفْرٍ صريحٍ لا مثنوية فيها، إذ فيها الرضا بالكفر وعدم اعتبار الإيمان شيئاً، نعوذ بالله من الضلال.

أما ما كان رسول الله ﷺ يفعله لهم فهو كثيرٌ وعظيمٌ:-

◈ فقد كان رسول الله يُبشرهم بالجنَّان، فيقول لياسر وأهله: «**أَبْشِرُوا آلَ يَاسِرٍ مَوْعِدُكُمُ الجَنَّةَ**». رواه الطبراني[1] والحاكم[2] والبيهقي[3]، ويدعوهم للصبر في حديث خباب.

◈ وقد كان يُبشرهم بمغفرة الذنوب، وقد تقدم هذا في حديث عمَّار رضي الله عنه.

◈ وقد كان أبو بكر رضي الله عنه بما له مِن مالٍ وقُدرة يُنفق في اعتقاء الرقاب، فقد أخرج أبو نُعيم في «الحلية»[4] عن هشام بن عُروة بن الزُبير، عن أبيه (فهو مُرسلٌ) قال: «كان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب، وهو يقول: أحد أحد، فيقول ـ أي ورقة ـ: أحد، أحد، الله يا بلال. ثم يُقبل ورقة بن نوفل على أُمية بن خلف وهو يصنع ذلك ببلال، فيقول: أحلف بالله عزَّ وجلَّ لئن قتلتموه على هذا

[1] «معجم الطبراني الأوسط»: باب: من اسمه أحمد.
[2] «المُستدرك على الصحيحين»: ٤٣٨/٣/ح٥٧١٩. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
[3] «شُعب الإيمان»: ٢٣٩/٢/ح١٦٣١، «دلائل النُّبوة»: ٢٨٢/٢.
[4] «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»: ١٩٩/١. وهو أيضاً عند النسائي في «فضائل الصحابة»: ١١٨/١/ح٨٩.

لأتخذنه حناناً، حتى مرَّ به أبو بكر الصديق يوماً وهم يصنعون ذلك، فقال لأُمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين، حتى متى؟ قال: أنتَ أفسدته فانقذه مما ترى، فقال أبو بكر أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك أعطيكه به، قال: قد قبلت، قال: هو لك، فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، وأخذ بلالاً فأعتقه. ثم أعتق معه على الإسلام، قبل أن يُهاجر من مكة، ست رِقابٍ، بلال سابعهم».

روى الزُبير بن بكار بعضه، وقال ابن حجر في «الإصابة»[1]: مُرسلٌ جيدٌ.

◈ كان يُبشرهم بالنَّصر الآتي، وهو وعدٌ يقيني يُؤمنون به، كما في حديث خباب ﵁.

فهذه هي المُقومات النفسية التي يُبنى عليها المُؤمن لاجتيازه هذه العَقبة، فيحصل فيها الثَّبات حتى تتحققِ الإمامة لصاحبها واقعاً، إذ لا إمامة إلاَّ بابتلاء.

وعدوّ هذه المُقومات هو الاستعجال، فإنَّ استطالة الطريق هي عدوّ الصبر واليقين، والاستعجال هو طلب الشيء قبل أوانه، وهو على العموم له حالان بحسب مطلوبه، فإنَّ هناك ما يُطلب قبل أوانه المُقدر له في السنن الجارية، وهذا هو المنهي عنه، وهو من سوء التقدير وفساد النظر، ويُقال في هذا: «من استعجل الشيء قبل أوانه عُوقِب بحِرمانه»، كمن طلب الولد قبل تمامه خداجاً، أو كمن طلب الثمر قبل تمامه، لكن هناك من المطلوب ما يمكن تحصيله بالجد والإسراع.

كالمسافر الجاد في طلبه الساعي إليه، أو كالصانع المجتهد في بلوغ حاجته، فهذا يُوعظ المرء به بحسب حاله، وإن كان الأمر الجامع لهذه المطالب هو الرِفق والأناة على الآلة المُستعملة، وعلى النفس والبدن والقوة، فقد وعظ رسول الله ﷺ المسافر بالاستعجال في الإياب إلى أهله بعد قضاء وطره، فقال T: «**السفرُ قِطْعَةٌ**

---

[1] «الإصابة في تمييز الصحابة»: ٤٧٤/٦٧.

مِنَ العَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمِهِ. فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلى أَهْلِهِ»[١] .

والاستعجال في أداء الطاعات والتوبة وقضاء حاجات المرء وبدنه هو المطلوب، فإنَّ من أعظم مفاسد النفس هو التأجيل والتسويف، وهو باب الشيطان الذي يُذهب الخير العظيم على المرء، هذا مع الرفق الذي مدحه رسول الله ﷺ بقوله: «**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**»[٢] .

فكل هذا ليس مقصود الحديث، وما كان يقوله الأقدمون: «العجلة والاتقان لا يجتمعان». إنما هو بحسب آلاتهم القديمة، فإنَّ للنَّاس اليوم من الآلات والوُسع الذي يُعينهم على الجمع بينهما إن أرادوا، وكل ذلك بحسب الآلة، كما قال تعالى عن الدواب: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]. وبالآلات ذهبت هذه المشقة، وصار الأمر هيِّناً بلا عَناءٍ شديدٍ.

ولكن العجلة المنهي عنها هي مُنازعة الأقدار السننية الجارية، كمن طلب من الدابة فوق وُسعها استعجالاً لمقصوده، أو حَمَّلَها فوقَ ما تُطيق، فإنَّ عاقبة هذا هو انقطاع الدابة، وعدم حصول المقصود، فالغايةُ من هذا الدين هو بلوغه الليل والنَّهار، وتحقيق العدل والأمان للعالَم، وأن تكون العاقبة له، فهذا مُستقره الذي وعد الله أهله به، ثم إنه وعد آحادهم وأجيالهم بوعود، إما الموت على الإيمان وبلوغ الجِنان، وإما النَّصر بغلبتهم على أعدائهم وشفاء صدورهم منه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾

[1] «صحيح البخاري»: ٢/٦٣٩/ح ١٧٨٣، ٣/١٠٩٣/ح٢٩٣٤، ٥/٢٠٧٠/ح٥٤٢٩. طرفاه ١٨٠٤، ٣٠٠١. «صحيح مسلم»: ١٣/٥٩/ح٤٩١٧.

[2] «صحيح مسلم»: ١٦/١٢٥/ح٦٥٥٤.

[الحج: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٧]. فهذه وعود القرآن الكريم، ووعود السُّنَّة الشريفة، ومع ما يقع للإسلام مِن تراجعٍ في بعض أُموره وبعض جِهاته إلاَّ أنَّ الوعود تجري إلى مُستقرها، فالقُسطنطينية قد فُتحت كما وعد رسول الله ﷺ مِن قِبل محمد الفاتح في الوقت الذي خسِر المسلمون فيه الأندلس وخرجوا منها، وما أنْ انتهتِ الحروب الصليبية وأهل الإسلام في افتراقٍ وحروبٍ داخليةٍ حتى دخل البلقان في الإسلام، ودخل أهل شرق آسيا القاصية في الإسلام في وقت ضُعف الإسلام، وعدم نزوع سَلاطينهم لجهاد الدعوة الواجب عليهم، والمُفلح في هذا كلِّه مَن بقي في الميدان صابراً محتسباً، مُتيَّقِناً أنَّ وعد الله آتٍ، فإما أنْ يقع به الوعد أو يكون ممهداً له، ويكفيه في ذلك أن يكون في سلسلة الصالحين، وسند المُبتلين في سبيل الله تعالى الذين هم أئمة الهُدى والدين، فيتحقق به الاهتداء، فإنْ قِيل عنِ الشهداء كان في زُمرتهم، حيث يرى أنَّ الشهادة إنْ تحدث عنها الواعظون ذكروا سُمية وعمر وعثمان وحمزة، ثم كرت أسماء الهُداة حتى تمر على جبالٍ أطوادٍ، وأئمة هُداةٍ شامخين فتصل إلى سيد قطب، وعبد الله عزام، وخطاب، وشامل، وأبي مصعب أحمد فضيل، «وأسامة بن لادن، وأنور العولاقي»[1]، ويجري النَّهر مُتدفقاً بالنُّور، وقد ترسم أسماء بعض رجاله أو تمر أُخرى تحت عين الله التي تعلمهم وتحصيهم، فتخطؤهم عيون العادِّين لا نقصاً فيهم، لكن لأنَّ هذا بابٌ لا يُعَدُّ أهله، ومَن يُذْكر إنما يُذْكر للتمثيل لا للحصر.

هكذا يدخل هؤلاء عالَم الاحتجاج، فإنْ تحدث النَّاس الصالحون عن دليلٍ من أدلة الدين قالوا ابتداءً: قال الله، ثم قال رسوله ﷺ، ثم يُذْكر الصالحون والعلماء والشهداء فيكون له نصيبٌ حين يدخل في زُمرتهم.

---

[1] تم إضافة هذان الاسمان من قِبل الناشر حيث أن الشيخ حفظه الله تعالى كتب هذه الرسالة قِبل استشهادهما. فرحمهما الله تعالى، وجميع موتى المسلمين.

ليتفكر كل عاقلٍ في هذا قبل أن يقع موقعاً، وقبل أن يؤوي إلى مُستقرٍ جديدٍ، أو يأتي باباً من أبواب العمل، فإنَّ الحياة قصيرة، ودفاتر كل الفِرق والمقامات مفتوحة، وبيده هو أن يسجل نفسه في أيِّ بابٍ أو صفةٍ وفي أيِّ دفترٍ، والله يقول: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة: ١٤].

والحمد لله ربِّ العالمين



☆☆☆☆☆
☆☆☆☆
☆☆☆
☆☆
☆

قائمة المراجع

• «**الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**» لأبي حاتم البستي محمد بن حبان بن أحمد بن حِبَّان بن معاذ بن معبد التميمي. طبعة دار الفكر/بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٩٦م.

• «**الإصابة في تمييز الصحابة**» لأبي الفضل أحمد بن عليّ بن محمد الكنانيّ العسقلاني. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٥م.

• «**السُنن الكُبرى للبيهقي**» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٦م.

• «**السُنن الكُبرى**» لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩١م.

• «**الطبقات الكُبرى**»، «طبقات ابن سعد» محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري.

• «**المُستدرك على الصحيحين**» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه الضبي الطهماني النيسابوري الشهير بـ "الحاكم" ويُعرف بـ "ابن الربيع". طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

• «**المُعجم الأوسط**» لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

• «**المُوطأ**» لأبي عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبَحي الحِميَري. طبعة دار الكتاب العربي/بيروت. ١٩٨٨م.

• «**جامع المسانيد والمراسيل**»، «**جامع الأحاديث الجامع الصغير وزوائده**

والجامع الكبير» لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن همام الخضيري السيوطي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

• «**حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء**» لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني. طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت. ٢٠٠٢م.

• «**دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

• «**سُنن ابن ماجه**» لأبي عبد الله محمد بن يزيد الربعي القزويني ابن ماجه. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

• «**سُنن أبي داود**» لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

• «**سُنن الترمذي**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

• «**سُنن النسائي الكُبرى**» لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩١م.

• «**شعب الإيمان**» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. دار الكتب العلمية/بيروت. ٢٠٠٠م.

• «**صحيح البخاري**» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة البخاري. طبعة دار ابن كثير. الطبعة الخامسة ١٩٩٣م.

• «**صحيح مسلم**» لأبي الحسين مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري، طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٢م.

«**فتح الباري شرح صحيح البخاري**» الفضل أحمد بن عليّ بن محمد الكنانيّ العسقلاني. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٣م.

• «**فضائل الصحابة**» لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٨٦م.

«**مُسند أبي يعلى الموصلي**» لأبي يعلى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٨م.

• «**مُسند أحمد**» لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. الطبعة الثانية. ١٩٩٣م.

• «**مُسند الحُميدي**» لأبي بكر عبد الله بن الزّبير الحُميدي الأسدي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٨٨م.

• «**مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**» لأبي العباس أحمد بن أبي بكر ابن إسماعيل بن سَليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي. طبعة دار الجنان/بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٨٦م.

• «**مقاييس اللغة**» لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. ٢٠٠١م.

